من تراب الطريق (٥٥٨)

الضمير ومراقبة الداخل (*) (١)

مع تعاليم الأديان بعامة ، واهتمامها بتنقية الضمير ووضع الإنسان على طريق الهداية بإيقاظه وحفزه ، فإن آباءنا درجوا على توصيتنا بمراقبة أنفسنا حتى لا نضل .. وهى وصية توارثها البشر من مئات السنين حتى الآن .. وهى فى الأغلب الأعم وصية بمراقبة وحكم للنفس على النفس .. تخاطب شعورا مفترضًا وجوده لدى كل فرد منا بمسئوليته عما يحدث ويقع منه قبل نفسه إيجابًا كان أو سلبًا .. أى عما يستوجب الرضا أو يستوجب اللوم والندم .

وهذه المسئولية مسئولية فردية على غرار مسئولية الفرد أمام ربه سبحانه وتعالى ، عن ذنوبه وأوزاره ، ومسئوليته قبل الحكم عن إخلاله بالأنظمة والقوانين ، ومسئوليته قبل الغير عن تعهداته وأخطائه أو أخطاء تابعيه ومن هم فى رعايته أو قوامته .. ويبدو أن تلك المراقبة لأنفسنا ، التى تسمى أحيانا بالضمير ، قد نمت بفضل الاعتياد على الشعور بالمسئوليات الفردية سالفة الذكر .. خاصة الشعور بمسئولية الآدمى أمام ربه عن ذنوبه وأوزاره أو عن خطاياه الظاهرة والباطنة .

وقد صار بين الضمير بهذا المعنى ، وبين الخطيئة ، صار بينهما تلازم من جهة أن الشعور بها بالخطيئة يوقظ الشعور بتأنيب الضمير وإلحاحه على النفس بالملامة والتهديد بالعقاب الإلهى . إذ بدون الشعور بالخطيئة والذنب

(*) المال ٢٤/ ١/ ٢٠١٢

لا يمكن أن يتنبه هذا الضمير بتاتا إلى دوره فى الرقابة .. فهو مرتبط بالذنب أو الخطيئة خوفًا من وقوعه أو وقوعها ، أو أسفًا على وقوعه أو وقوعها ، وهلعا من عواقب ذلك الوقوع .. وهذان لا يحدثان إلاّ ممن يولد وينشأ فى مجتمع بشرى يشعره بهذا الخوف أو الأسف أو الهلع ، ويلقنه إياه .

وأصل ذلك فى المجتمعات البدائية ، إما مكانة الأب ووصاياه ، أو سطوة وسيطرة الزعيم ، أو تأثير الكاهن .. وتعويد الفرد على التزام الطاعة والخوف أو الهلع من التعرض لعقوبة العصيان . ومن هذه النية الساذجة وبفضل ما أودع فيها من استعدادات هائلة ، نمت هذه المراقبة الداخلية وتطورت وانتشرت فى واحة الديانات والأخلاق والقيم الإنسانية على هذه الأرض .

وهذه المراقبة الداخلية المفترضة لحركات النفس من حيث دوافعها وأغراضها ونواياها وسلوكها وتصرفاتها تتباين قوة وضعفا وتأثيرا وتأثرًا وتطورًا وتدهورًا باختلاف الأصول والبيئات والظروف والأحوال خلال العصور .

والناس ، كسلاً منهم أو استعجالاً واختصارًا أو انحيازًا ومحاباة تتجاهل هذه التباينات والاختلافات فيما يتعلق بكل منهم عند حكمه على نفسه فيما بينه وبينها .. كما يتجاهلها الناس بعامة فى حكمهم على خُلُق الآخرين الذى يبنونه فى الغالب على نظرتهم غير المتأنية إلى سلوك هؤلاء الآخرين وبيئتهم ، الأمر الذى يجعل هذا الحكم فى النهاية أغلبه مجازفة أو اعتباط . وهذا الاعتباط المتداول يجد بطبيعة الحال من يؤيده ومن يعترض عليه ، وقد يجد هذا أو ذاك من يرددونه فى المستقبل ، أو لا يجد فيطويه النسيان ، دون أن يمنع نسيانه من كشف قيمة ما نسيه السابقون وزيف ما كانوا قد أيدوه وأكدوه !

وحكمة الضمير مازالت منذ قرون ، أكثر انتشارًا على الألسنة والأقلام من عبارة مراقبة النفس ومحاسبتها ، وإن كانت هذه العبارة أوضح فى الفهم وأقرب إلى التعيين والتحديد من كلمة الضمير التى يتغاير معناها مع قصد قائلها أو كاتبها .. فتارة قد يقصد بها السر ، وتارة يقصد بها الأمانة أو الحقيقة أو الصدق ، وطورًا يعنى بها الإخلاص والمطابقة بين باطنه وظاهره ، وأحيانا بمعنى حريته فى إعلان أو إبداء رأيه ، وكثيرا بمعنى محاسبة نفسه ومراقبتها فيما يفعله ويقوله ، وتنصيب الضمير قاضيا يقره على ما يتجه إليه من الصواب والخير والخلق الحسن ، أو يلومه ويتوعده ويهدده بسوء العاقبة على باطله وسوء طويته !!

ويبدو أن هذا التداخل والتشابك فى تلك المعانى المتضاربة أو المتباعدة ليس إلاّ وليد أوليّة شاملة مجملة لها جميعا فى مرحلة سابقة من مراحل التطور التى مَرَّ بها الوعى الآدمى .. سمّاها الناس أولاً باسم مجمل على قدر ما لديهم من الوعى ، ثم عادوا وأطلقوا على كل منها كلمة أو عبارة تميزه ، وانصرف فريق منهم عن استعمال اللفظ المجمل وظلت كثرتهم تستعمله مع غيره . والمهم أن كلمة ضمير وعبارة مراقبة ومحاسبة النفس تشير كل منهما إلى مواقف آدمية قد تختلف وقد تتطابق يقفها الإنسان فيما بينه وبين نفسه .. تؤثر فى تقديراته لها ، وقد تؤثر فى تقديرات الناس إذا عرفوها فعلاً أو ظنا ، وقد تؤثر فى سلوكه وسلوك الآخرين نحوه .

من تراب الطريق (٥٥٩) الضمير ومراقبة الداخل (*) (٢)

مواقف الإنسان بتأثير الضمير أو مراقبة الداخل حصاد استبطانات مبناها عمل الذاكرة الذى يتيح مراجعة الآدمى للماضى ومقابلته للحاضر وإطلاله على المستقبل .. وهو فى ذلك يعتمد على ما حصله من خبرات مباشرة وغير مباشرة ، ومن معارف ومصدقات وعقائد سائدة أو موافقة لأذواقه وفهمه ولمحيطه .. وهذه هى نفسها الأدوات التى تستخدمها ضمائرنا فى قراراتها وأحكامها ، كما تجرى بموجبها مراقبتنا ومحاسبتنا لأنفسنا .. فليس الضمير حينما نقتنع به ليس مصدرًا أولياً لأحكامه ومصدقاته وعقائده وقيمه ، وبالمثل مراقبتنا ومحاسبتنا لأنفسنا .. فقواعد هذه المحاسبة والمراقبة ، وموازينها ، لا نخلقها عند المراقبة والمحاسبة ، وإنما نتخيرها ونستمدها من محفوظات ذاكرتنا مع الاجتهادات التى يلون بها كلٌ منا نظرته إلى حصيلة ذاكرته وبما يناسب رؤيته لنفسه .

ودون الدخول فى مشكلة وحدة الوعى وتعددها لا شك أن الآدمى من طفولته الأولى ، يرى نفسه فى الإحساس بجسده ويشهدها معه فى كل مراحل عمره فى الحركات والسكنات واليقظة والنوم والصحة والمرض والجد والهزل والسرور والغم وفى جميع علاقاته بمحيطه .. وهى رؤية أو مشاهدة أو إحساسات لا تخلو من مراقبة تعقبها ردود أفعال من جانبه .. فلا

(*) المال ٢٥/ ١/ ٢٠١٢

غرابة فى أن تمتد مراقبة الآدمى ومحاسبته لنفسه إلى صوابه وخطئه وصدقه وكذبه ونفعه وأذاه وخيره وشره خلال وجوده ؛ على وفق ما استقر فى عقله بالاعتياد والممارسة والمعرفة من أصول ومبادئ وقيم .. وهذا هو ما يعبر عنه فى كتب الأدب العربى بالوجدان .. وهو معنى قريب من كلمة الضمير .

والاتصال بين الديانات وبين الوجدان مفهوم ؛ لأن الديانات قائمة ابتداءً وأخيرًا على افتراض الإيمان التام لدى من يعتنقها بمفاهيم معينة عامة دائمة فى كل زمان ومكان ، والتزام معتنقيها بها وباتباعها وعدم مخالفتها ما عاشوا باطنا وظاهراً ، وفى الاحتكام لما هو حق وما هو باطل وما هو صواب وما هو خطأ وما هو خير وما هو شر ، ومراقبة ومحاسبة أنفسهم فى ذلك كله .. سواء فى السر أو فى العلن .. لأنه يقوم على هذه المراقبة تسعة أعشار الإيمان بالديانة . وعن هذا وبعده يتفق التلاقى بين الوجدان وبين ما يعرف بالحريات الشخصية للآدمى فى هذا البعد.. خاصة حرية الفكر والرأى والاعتقاد .. وهذه ليس لها خضوع لجهة عليا سامية يجب أن يذعن لمشيئتها عقل الآدمى ووعيه . والتسليم بتلك الحريات ليس إيماناً وليس أبديا ، وإنما هو امتثال أو اعتقاد حضارى سائد بين أغلبية الناس فى الأمم المتحضرة .. ويبقى وقد لا يبقى خلال التطور أو التغير المستقبل لخبرات ومعارف وأفكار الجماعات المتطورة أو المتدهورة . وذلك الاتجاه العلمانى سلم به العالم فى العصر الحديث ، ولم تعد الديانات تفكر فى مقاومته علنا ، لأن الغالبية الغالبة من دول العالم نظمها السياسية والاقتصادية والعلمية والفنية نظم علمانية برغم أن الكثرة الكاثرة من شعوبها تنتمى إلى ديانات معترف بها رسميا وغير مضطهدة ولا محجور عليها فيها فى هذه الدول . ولم

يعد للديانات بعامة سيطرة شاملة أو شبه شاملة على حياة معتنقيها العامة أو الخاصة .. هذا والملحوظ أن الاعتراف العالمى بحقوق الإنسان ومنها حرياته الفردية تكريس لذلك الاتجاه العلمانى الذى صار سائدا فى العالم كله وإن نحى البعض أو بعض الدول إلى إنكاره !

وإذا كان الآدمى ملتزماً بمراعاة قواعد الأخلاق والقيم الإنسانية فى زماننا ، فما هو يا تُرى الأساس الفعلى لذلك الالتزام ؟ . أساس ذلك فيما أعتقد هو الدين وحده عند المتدينين جدا ، والدين واحترام النفس عند المتدينين المعتدلين ، واحترام النفس عند غير المتدينين .

وأقصد باحترام النفس الحرص على عدم تعريضها للملامة أو الازدراء أو سوء السيرة والسمعة فى البيئة .. فهل معنى ذلك أنه يأمن سوء السيرة والسمعة فى محيطه من كان لديه من الكرم والأريحية ما يحول بينه وبين الملامة ، أو له من الجاه الكبير المسلم به فى محيطه ما يجعل ازدراءه ومن يزدرى به سخيفا لا يعتد به ، أو له من المكانة والكفاية المشهورتين ما يحجب ويوارى سوء السيرة ويضمن دوام الحاجة إليه والاستعانة به والتعويل على رأيه وحكمه ؟! هل يأمن هؤلاء وأولاء سوء السيرة والسمعة فى المحيط إذا ما ترخصوا فى الالتزام بما تعارف عليه المجتمع من قواعد الأخلاق والقيم الإنسانية ؟!

من تراب الطريق (٥٦٠) الضمير ومراقبة الداخل (*) (٣)

كثيرًا ما توجد فى المجتمعات حالات الترخص فى الالتزام بقواعد الأخلاق والقيم الإنسانية، وكثيرا ما أتاحت هذه الحالات لأصحابها فرض الترخص فى التقيد بهذه القيم وقواعد الأخلاق، وكثيرا ما قلدهم المقلدون فى ضلالاتهم مع عجز المقلدين عن امتلاك الجاه أو الأريحية أو الكفاية والمكانة وغير ذلك من المكنات أو القدرات التى تفتح للعاصى أو المخالف بابًا من أبواب التسامح والإغضاء عما يفعله والستر عليه. على أنه إذا انفتحت أبواب الستر والإغضاء والتسامح كثر وازداد الداخلون فيها وتكاثروا وزادوها ازدحامًا واتساعًا، وصار ذلك الإخلال أو الاستهتار أو الإفحاش صار مباحًا أو شبيهًا بالمباح للجميع، فيتقلص الحياء لدى العامة تقلصه لدى الخاصة، وتختفى معالم الفضائل عن الأنظار ولا يعود أفراد الشعب يشعرون بالانتماء إلى أمتهم لفقدهم الإحساس بالالتزام بالمحافظة على مزاياها وخصائصها وأخلاقها وثقة الشعوب والأمم الأخرى فيها، فضلا عن فقدانها هى ثقتها فى نفسها ويقينها فى صلابة كيانها ومتانة عنصره وأصالته كما كان فى الماضى ليجتاز بها الحاضر ومنه إلى المستقبل المشرف المنشود .. ذلك لأننا مهما بالغنا فى الاهتمام والاحتفال بفرديتنا وشئوننا ومصالحنا الخاصة، يستحيل علينا تجاهل أن فرديتنا تدين بوجودها إلى

(*) المال ٢٦/ ١/ ٢٠١٢

جماعة من الجماعات لا العكس .. وهى فردية فى جماعة .. لا توجد إلاّ داخلها ، ومن يحاول منا مقاومة ذلك ، لا يكون أمامه إلاّ التشرد والصعلكة .. هذا وكل مسعى يسعاه الفرد له دائما وجهان : وجه يرتد إلى نفسه ومن هم فى حكم نفسه ، ووجه يتجه حتمًا ودون أن يشعر إلى آخرين فى الجماعة بنفع أو خدمة ، إلاّ إذا كان مسعًى ضارًا أو شريرًا .. فإن مساعيه لا تنفع إلاّ ظاهرًا .. ويعود هذا السعى على صاحبه حتمًا بسوء العاقبة .

وكافة ما نعتنقه من المعتقدات والقيم والأخلاق والعلوم والفنون والمهارات موجّه أصلاً وأساسًا إلى جماعة أو أكثر من الجماعات ، يصحب ذلك نفع فردى معنوى أو مادى للفرد أو الأفراد الذين علموه أو زادوا معرفته أو استعملوه .

فأصول كل ما مع الآدميين من ديانات وعقائد ومعارف ، توجد دوافعها وعواملها وجذورها وبذورها أولاً فى الجماعة ، ثم تنمو لدى فرد أو أفراد لتقديمها للجماعة .. وبذلك يكشف للجماعة عن وجودها ومضامينها بمعرفة أفراد ، ويتولى تأويلها وشرحها أفراد باللغة السائدة فى الجماعة لخدمة الجماعة مصطنعين مصطلحات أو سمات وكليات وجزئيات تتداول الجماعة منها ما يسوغ لديها .

ويبدو أن هذا يكفى لتفسير معقول لوجود ما يُسمّى بالضمير وما يُسمّى بالوجدان أو ما يُسمّى بمراقبة النفس ومحاسبتها ، ووجود ما يحرص الآدميون عليه فى الماضى والحاضر من القيم والأخلاق والمُثل والمصدقات والعقائد .

وهذا شىء غير البحوث العلمية المتابعة التى لا تتوقف فى استقصاء كيفية عمل أجهزة الجسم الآدمى وخاصة المخ والحواس وما يُسمّى بالنفس

والشعور والعاطفة والذاكرة وأنواع الوعى والإدراك .. فهذا شىء آخر لا ريب فى نفعه ، ولا محل للاعتراض عليه من أحد .. لأنه سعىٌ جاد للمزيد من المعرفة بما منحه الخالق عز وجل لنا مما لا ننشئه ولا نستطيع أن ننشئه لأنفسنا ، ولكننا نستطيع أن ننميه تنمية تمكننا أن نستزيد من فهمه وأن نحسن استعماله .

هذا ويبدو للمتأمل أن مراقبة النفس فى الحسن والقبيح والجائز والمحظور هى نوع من الترقى فى التميز ، وخطوة فى الترفع درجةً عن الجهل والخطأ .. وهى خطوةٌ لا بد منها لتماسك الجماعة وإمكان قيادتها .. لأنها أيسر انتشارًا بين عامة الناس من انتشار المعارف العلمية .

وقد أحس الكل من قديم بتلك المراقبة وبارتباطها بالذنوب والأوزار ، وبضرورة مقاومة النفس لها فى جميع المستويات نتيجة الخوف من الضمير السيئ أو النفس الأمارة بالسوء وما يجران على الآدمى من الآثام والندم والعقوبة والعزلة عن الجماعة .. فهذه المراقبة وسيلة تربية وانضباط لأفراد الجماعة .. بالغ الأوربيون فى التحدث عنها ضمن تفاخرهم بالحرية الفردية وتحديهم لسلطان الدولة والكنيسة خلال القرون الثلاثة الماضية ! .. وهذه المراقبة الداخلية ، أو الضمير ، هى بوصلة الآدمى فى سعيه إلى الحق والكمال والجمال .